

Enna and Anna between Infinitive and Emphasis

Shaker Ameri *

Abstract:

The cases of *enna* and *anna* are telling examples of the normative tradition in Arabic syntax. Grammarians believe that *enna* and *anna* are both emphatic. According to them, *anna* can be infinitive, too, and *enna* is never used infinitively. The main purpose of this article is to show that *enna* can be used infinitively as well as emphatically and *anna* is not emphatic but appears at the beginning of a nominal sentence, changing it to an infinitivized sentence. For the sake of clarity for readers, this article explains the conditions of fat'h *anna* and kasr *enna*, when they are obligatory and when they are just allowed or being optional. This, very well, shows the prescriptiveness of the traditional Arabic grammars.

The article pivots around two points: the first is the reasons that *enna* is emphatic, and the second is that the claim that *enna* is never used infinitively is not true. The article uses the descriptive style of Arabic syntax, which stresses the description of language not the application syntactic prescriptions or the close relationship between sounds and meaning. The article proves that there is no justification for *anna* to be used emphatically and there is no obstacle for *enna* occasionally used infinitively in the middle of sentences. The article deals with an important point that it is not important whether or not changing to infinitive is possible; what is important is the position of the sentences with *enna* and the meaning which comes to the mind.

Keywords: Enna, Anna, Emphasis, Infinitive, Interpretation.

References:

- *Selim*. The Islamic Science and Knowledge Foundation (Bonyad Islamic Sciences and Knowledge).
- Al Shamsan, I. (1999). Al-Edgham: Concept, Types and Rulings, *Al-Imam University Journal*, 25, 1-48.
- Al-Ansari, J. I. H. (1994). *Explanation of Qatar Al-Nada and Bell Al-Sada*, first edition, Beirut: almaktaba alasreyah (Modern Library).
- Al-Da'as, A. O., Ahmad M. H. & Isma'il M. Q. (2004). *The Expression of the Holy Quran*, First Edition, Damascus: Dar Al-Nameer and Dar Al-Farabi.
- Al-Khatib, T. Y. (2007). *The detailed lexicon in Expression*, fourth edition, Beirut: dar alkutub alelmiah (Scientific Book House).

* Associate Professor of Arabic Language and Literature, Semnan University, Semnan, Iran
sh.ameri@semnan.ac.ir

Received: 16/01/2018

Accepted: 22/12/2018



This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

Doi: [10.22108/rall.2018.108941.1102](https://doi.org/10.22108/rall.2018.108941.1102)

- Al-Makhzoumi, M. (1986). *In Arabic Grammar: Criticism and Guidance*, Second Edition, Beirut: Dar Al-Raed Al-Arabi.
- Al-Qurtubi, M. A. (2006). *The comprehensive provisions of the Quran known as the interpretation of Al-Qurtubi*, Beirut: Al-resaleh Foundation.
- Al-Razi, F. A. M. U. (1981). *The great interpretation*, Damascus: Dar al-Fikr.
- Al-Samarrai, F. S. (2012). *Meanings of Grammar*, First Edition, Beirut: Foundation of Arab History.
- Al-Tabari, M. J. (2001). *Tafseer al-Tabari*, first edition, Cairo: Hajar for printing and publishing.
- Al-Tabarsi, A. F. H. (1988). *Majma Al-Bayan* (correcting and investigating and commenting Hashim al-Rasooli al-mahallati and Fadlullah al-Yazdi Tabatabai, second edition), Beirut: Dar al-Maarifah.
- Bishr, K. (2000). *Phonology*, Cairo: Dar Gharib.
- Dhayf, Sh. (no date). *Renewing grammar*, publishing the literature of the estate.
- Farsi, A. A. (1999). *Completion*, Second Edition, Beirut: Alam Alkutub.
- Ghurabi, A. Gh. *Surat Almunāfeqoun (hypocrites)*, the site of Medad: <http://midad.com/article/198232/> Sura-hypocrites, date of publication: 08/11/2007, Date of transfer: 9/9/2018.
- Hasan, A. (no date). *Alnahw Alwafi*.
- Ibn Aqeel, A. (2006). *Sharh Ibn Aqeel*, 9th Edition, Qom, Iran: Nasir Khusraw.
- Ibn Ashour, M. Altahir, Al-Tahrir wa Al-Tanwir, Tunisia, Tunisian Publishing House.
- Ibn Hisham, A. (no date). *Mughi Allabeeb*, Fourth Edition, Qom (Iran) Library of Grand Ayatollah Mar'ashi Najafi.
- Ibn Jinny, O. (no date). *Al-Khasaes*, Third Edition, Beirut: dar al kutub alelmiyah (Scientific Book House).
- Kamal El-Din, H. A. (1999). *A Study in Phonology*, First Edition, Cairo: Library of Ādāb.
- Khouly, M. A. (1982). *Dictionary of phonetics*, first edition, Riyadh: University of Riyadh (Farazdak Press).
- Sayed Qutb. (2003). *The Shadow of the Qur'an Interpretation*, 32th edition, Cairo: Dar al-Shorouq.
- Shartoni, R. (2004). *Principles of Arabic*, tenth edition, Tehran: Asateer.
- Shirazi, N. M. (2001). *Alamthl fi Tafseer Kitab Allah Almunzal*, First Edition, Qom (Iran): Press of Amir Almu'meneen (p).
- Sibweih, A. A. O. (1988). *The Book*, third edition, Cairo: Library of the Khanji.
- Tabatabai, M. H. (no date). *Al-Mezan in the Interpretation of the Quran*, Qom: Publications of the Teachers' Group in the Scientific Estate.
- Tantawi, M. S. (1987). *Intermediate interpretation of the Holy Quran*, second edition, Cairo: Alsa'adah Press.
- The Arabic Language Complex in Egypt. (2004), *The Medieval Lexicon*, Fourth Edition, Cairo: Shorouk International Library.
- Abu al-Abbas, M. Y. (1994). *Al-Muqtadhab*, Cairo: Committee for the revival of Islamic heritage.
- Yaqub, E. B. et al. (1988). *Encyclopedia of Grammar, Syntax and Expression*, Beirut: Dar Al-ELm lelmalyeen.

«إنّ» و«أنّ» بين المصدرية والتوكيد^١

❖ شاكر عامري

الملخص

يعتبر موضوع «إنّ» و«أنّ» من المصاديق البارزة للمنهج المعياري في دراسة النحو العربي. ويعتقد عامة علماء النحو أنّ «إنّ» و«أنّ» كليهما للتوكيد، وتكون «أنّ» مصدرية، بينما لا تكون «إنّ» مصدرية أبداً. هدف المقالة هو إثبات أنّ «إنّ»، إضافةً إلى كونها للتوكيد، من الممكن أن تأتي مصدرية أحياناً، وذلك في وسط الكلام، وأنّ «أنّ» للمصدرية فقط، دون التوكيد. ولإثبات تلك المسألة، كان لا بدّ لهذه الدراسة من التعريف بمواضع كسر همزة «إنّ» وفتحها وجوباً وجوازاً، وذلك لرسم صورة واضحة حول الموضوع لدى القارئ. فتناولت الدراسة مواضع فتح همزة «إنّ» وجوباً، حيث اكتفت بضابط تلك المواضع، وهو أن تصلح مع معموليها لتكوين مصدر مؤوّل، ثم تطرقت إلى مواضع كسر همزة «إنّ» وجوباً، وبعد ذلك ذكرت مواضع جواز الأمرين؛ الكسر والفتح اللتين يظهر فيهما تعسّف المنهج المعياري في النحو العربي واضحاً. إنّ المنهج الذي اتبعته الدراسة هو مناقشة آراء النحاة في نقطتين رئيسيتين، هما: ما هي الأدلة الموجودة على كون «أنّ» توكيدية؟ هذا أولاً، وثانياً إنّ عدم جواز كون «إنّ» للمصدرية لا يقبله واقع اللغة العربية. وقد اعتمدت المقالة على المنهج الوصفي في دراسة النحو العربي الذي ينصّ على أنّ النحوي يجب أن يصف الظواهر اللغوية لا أن يضع القوانين لها، وكذلك على علم الأصوات الذي ينصّ على العلاقة المباشرة بين الصوت والمعنى، غير مستغنية عن المنهج التحليلي، وأثبتت عدم وجود أدلة على كون «أنّ» للتوكيد، ولا مانع من كون «إنّ» للمصدرية في بعض المواضع في وسط الكلام. وقد أشارت إلى مسألة مهمة في هذا الصدد، وهي أنّ مسألة إمكان التأويل وعدمه ليست مهمة، لأنّها ليست واقعية؛ فالمهمّ هو موقع جملة «إنّ» والمعنى الذي يرسمه ذلك الموقع في الذهن.

المفردات الرئيسية: «إنّ»، «أنّ»، التوكيد، المصدرية، التأويل

١- تاريخ التسلم: ١٣٩٦/١٠/٢٦ هـ. ش؛ تاريخ القبول: ١٣٩٧/١٠/١ هـ. ش.

١- المقدمة

«إِنَّ» و«أَنَّ» كما هو معروف عند كل دارس للنحو العربي، حرفان مشبهان بالفعل. ولا يهمننا هنا سبب التسمية بقدر ما يهمننا الاستعمال. وقد اختلف علماء النحو والمهتمون بأمره في نظرتهن إلى «إِنَّ» و«أَنَّ»، فاعتبرهما بعضهم حرفين منفصلين عن بعضهما البعض، فيما اعتبرهما أكثرهما حرفاً واحداً، ولذلك رأيناهم يخصصون باباً لمواضع فتح همزة «إِنَّ» وكسرها. وهذا الأمر هين كسابقه؛ فالهم، كما أسلفت، هو الاستعمال. وتتلخص النظرة السائدة في النحو العربي حول «إِنَّ» و«أَنَّ» بما يلي: ١- «إِنَّ» و«أَنَّ» كلتاهما للتوكيد؛ ٢- «أَنَّ» هي حرف مصدري لتحويل الجمل الاسمية إلى مصدر مؤول، وهي تدخل على جمل غير مستقلة؛ ٣- «إِنَّ» تختص بالجمل المستقلة التي لا تؤول حتى وإن كانت في وسط الكلام، أي ليست حرفاً مصدرياً.

إِنَّ من يتبع الاستعمالات المختلفة لـ«إِنَّ» و«أَنَّ» ومعانيها في الجمل المختلفة ثم يقارن تلك الاستعمالات بما وضعه النحويون من قواعد في هذا المجال وما تبثوه من تفسيرات ستدور في ذهنه عدد من الأسئلة، منها: إذا سلمنا بثبوت مسألة التوكيد، فهل «إِنَّ» و«أَنَّ» في التوكيد سواء؟ لماذا تُكسر همزة «إِنَّ» في وسط الكلام، إذا تعددت المؤكدات، وتُفتح همزتها إن زالت تلك المؤكدات؟ فيحاول أن يفرض فرضيتين للإجابة عن السؤالين أعلاه، بعد تفكيكها:

- «أَنَّ» ليست للتوكيد، بل هي مصدرية أو حرف ربط، فهي دخلت على جملة اسمية لتحوّلها إلى مصدر مؤول، لأنه لا يوجد حرف مشبه بالفعل غيرها يؤدي ما تؤديه، وإن أريد التوكيد منها، إضافة للمصدرية أو الربط، كُسرت همزتها؛ - «إِنَّ» للتوكيد دائماً، وهي مصدرية إن أريد منها الأمران معاً، وذلك في وسط الكلام.

هاتان الفرضيتان تصلحان للإجابة عن السؤالين السابقين، ولكنهما تبقيان فرضتين تحتجان إلى الإثبات، وهو ما تحاول هذه المقالة القيام به.

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي الذي يقوم بتحديد الظواهر النحوية ووصفها، تمهيداً لتحليلها إلى مؤثراتها والأدوار التي من الممكن أن تلعبها وينصّ على أنّ النحوي يجب أن يصف الظواهر اللغوية لا أن يضع القوانين لها، وعلم الصوتيات الذي ينصّ على العلاقة المباشرة بين الصوت والمعنى، لتلتئم كافة المعطيات وتتجانس فتؤتي أكلها، وذلك عن طريق المنهج التحليلي. أما أهمية البحث فتنبع من أنه يحاول حلّ مشكلة، بل معضلة طالما أدت إلى بعد النحو من واقع اللغة العربية.

وأما بالنسبة إلى خلفية البحث فيجب القول إنّ أمهات كتب النحو قديمها وحديثها قد خصصت فصلاً للحديث عن الموضوع، وقد قامت أكثر الكتب الحديثة بتكرار آراء القدماء، وقلما نجد كتاباً حديثاً شذ عن هذه القاعدة أو عارض آراءهم، إلا ما وجدته في كتاب تجديد النحو لشوقي ضيف، وكتاب في النحو العربي: نقد وتوجيه لمهدي المخزومي من إشارات ونقاشات مختصرة، فقد أشرت إلى آرائهما في طيات البحث. بذلك، يمكننا القول إنّ هذا البحث الذي بين يديك يتميز بانفراده بمناقشة هذا الموضوع بشيء من التفصيل.

٢- مصطلحات البحث

قبل الخوض في صميم الموضوع والإجابة عن السؤالين المطروحين وإثبات الفرضيتين، لا بد لنا من توضيح بعض المسائل التي ترتبط بشكل مباشر بموضوع المقالة، كفتح همزة «إِنَّ» وكسرها وجوباً وجوازاً. وسوف نعرض، باختصار، لعدد من الكتب القديمة التي تناولت الموضوع مثل شرح ابن عقيل، والكتاب لسيبويه، والمقتضب للمبرد، والخصائص لابن جني، والنكت

للأعلم الشنتمري، والمقرَّب لابن عصفور، وشرح الدماميني على مغني اللبيب. واعتمدنا على عدد من الكتب المعاصرة؛ يمتاز أحدها بالإسهاب، وهو كتاب النحو الوافي، وآخران بالاختصار، وهما كتاب موسوعة النحو والصرف والإعراب، والمعجم المفصل في الإعراب لطاهر يوسف الخطيب، والرابع بنظرة مغايرة، وهو كتاب تجديد النحو. كما استعانت الدراسة بعدد من التفاسير المشهورة فيما يتعلق بمعنى الآية الأولى من سورة المنافقين، خاصة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون ٦٣: ١)، من قبيل تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، والتفسير الوسيط لطنطاوي، وإعراب القرآن لأحمد الدعاس، والتفسير الأمثل لناصر مكارم الشيرازي، وتفسير ابن عاشور، والتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وتفسير الشيخ عبد الغني الغرابي، ومجمع البيان للطبرسي، وتفسير الميزان للعلامة الطباطبائي. وهناك كثير من الكتب والتفاسير لم أتعرض لها خوف الإطالة والملل وأعتقد أنّ فيما عرضته من الأسماء كفاية لطالب الحقيقة. ويكمن الغرض من استعراض الكتب النحوية في محاولة إثبات أنّ «أَنَّ» ليست للتوكيد، بل هي مصدرية أو حرف ربط فقط، فيما يتلخّص الهدف من استعراض كتب التفسير في محاولة إثبات أنّ «إِنَّ» من الممكن أن تكون مصدرية في وسط الكلام.

٣- فتح همزة «إِنَّ» وكسرها

جاء في المقتضب تحت عنوان هذا باب الأحرف الخمسة المشبهة بالأفعال: «... وَإِنَّ وَأَنَّ مجازهما واحد؛ فلذلك عددناهما حرفاً واحداً» (١٩٩٤م، ج ٤، ص ٣٩٢). وقد اتفق النحاة على كون لـ«إِنَّ» ثلاث حالات: وجوب الفتح ووجوب الكسر وجواز الأمرين.

٣-١- فتح همزة «إِنَّ» وجوباً

قال بهاء الدين عبد الله بن عقيل تعليقاً على قول ابن مالك:

«وهمزَ إِنَّ أفْتَحُ لسدِّ مصدرٍ مسدّها، وفي سوي ذاك أكسرها

فيجب فتحها إنْ قُدِّرَتْ بمصدر... فإنْ لم يجب تقديرها بمصدر لم يجب فتحها، بل تُكسر وجوباً أو جوازاً» (١٣٨٤هـ، ج ١، ص ٣٥٠). وجاء في النحو الوافي أنّ وجوب الفتح يكون «في موضع واحد، هو: أن تقع مع معموليها جزءاً من جملة مفتقرة إلى اسم مرفوع، أو منصوب، أو مجرور، ولا سبيل للحصول على ذلك الاسم المطلوب إلاّ من طريق مصدر منسبك من «أَنَّ» مع معموليها» (بلا تا، ج ١، ص ٦٤٢)، وأضيف: «فمن الواجب أن يكون الفعل وغيره مما هي معمولة له مطابقاً لها في المعنى؛ بأن يكون من الألفاظ الدالة على العلم الثابت واليقين... مثل: اعتقدت، علمت، وثقت، تيقنت، اعتقادي... ولا يقع قبلها شيء من ألفاظ الطمع، التوقع، والإشفاق والرجاء؛ أردت، اشتهيت، وددت... وغيرها من الألفاظ التي يجوز أن يوجد ما بعدها أو لا يوجد؛ والتي لا يقع بعدها إلاّ «أَنَّ» الناصبة للمضارع» (المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٤٤). ثم يذكر حسن أنّه يجوز أن يكون الفعل خارجاً عن الإطارين السابقين شرط أن يدل على العلم الثابت واليقين، وألاّ يقع قبلها شيء من ألفاظ الطمع، والتوقع، والإشفاق والرجاء، فيكون ظناً أو شكاً، مثل: «ظنّ، وحسب، وخال...» ويضيف في الصفحة التالية شرطاً آخر، وهو ألاّ تكون «أَنَّ» مع معموليها مستقلة بنفسها، أي أن تكون جزءاً من جملة أخرى. ولكنّه يذكر أنّ «أَنَّ» التي تفيد الترجي لا تخضع للشرط السابق، حيث يجب أن تلازم صدر جملتها ولا يصح اعتبارها حرفاً مصدرياً يؤوّل مع معموليه بمفرد، وهذا خارج عن بحثنا. وقال يعقوب في موسوعة النحو والصرف والإعراب: «تُفتح همزة «إِنَّ» في مواضع تعود

لمقياس واحد هو صحة سبك مصدر منها ومن معموليها» (١٩٨٨م، ص ١٥٨). وقال صاحب تجديد النحو: «وثفتح «أن» حين تقع مع اسمها وخبرها موقع المفرد، بتكوين مصدر من خبرها مضاف إلى اسمها، مثل: «أصحيح أنك مسافر؟ فجملة (أنتك مسافر) تقع موقع (سفر) بحيث يمكن أن يُقال: «أصحيح سفرُك، بدلاً من (أصحيح أنك مسافر)» وحينئذ يُقال في إعرابها: «صحيح» خبر مقدم و(أنتك مسافر) مبتدأ مؤخر» (بلا تا، ص ١٤٨).

٢-٣- كسر همزة «إن» وجوباً

قال ابن عقيل، تعليقاً على قول ابن مالك:

«فاكسر في الابتداء، وفي بدء صلة
أو حكيته بالقول، أو حلت محل
وكسروا من بعد فعل علقا
وحيث «إن» لليمين مكملة
حال، كزرتة وإتي ذو أم
باللام، كاعلم إنّه لذو ثقي

يجب الكسر في ستة مواضع: الأول: إذا وقعت «إن» ابتداءً، أي في أول الكلام، نحو: إن زيدا قائم...؛ الثاني: أن تقع «إن» صدر صلة، نحو: جاء الذي إنّه قائم...؛ الثالث: أن تقع جواباً للقسم وفي خبرها اللام، نحو: والله إن زيدا لقائم...؛ الرابع: أن تقع في جملة محكية بالقول، نحو: قلت: إن زيدا قائم...؛ الخامس: أن تقع في جملة في موضع الحال، كقوله: «زرتة وإتي ذو أم»...؛ السادس: أن تقع بعد فعل من أفعال القلوب وقد علق عنها باللام، نحو: علمت إن زيدا لقائم» (١٣٨٤هـ. ش، ج ١، ص ٣٥٢-٣٥٤). ويستدرك على ابن مالك عدم ذكره مواضع أخرى للكسر أجملها في موقعها بعد «ألا» الاستفتاحية وبعد «حيث» وإذا وقعت في جملة هي خبر عن اسم عين، ثم يعقب على ذلك بأن المواضع المستدركة تدخل - في الواقع - تحت عنوان الموضع الأول، أي في أول الكلام. وقال صاحب النحو الوافي:

يجب كسر همزة «إن» في كل موضع لا يصح أن تُسبك فيه مع معموليها بمصدر؛ حيث يجب الكسر في... أول جملتها حقيقة، نحو: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً»... [أو] حكماً إذا وقعت بعد حرف من حروف الاستفتاح مثل: ألا، أما؛ نحو: ألا إن إنكار المعروف لؤم؛ أما إن الرشوة جريمة... ومثلها الواو التي للاستئناف... وكذلك كلّ واو تقع بعدها جملة تامة. فإن سبقها شيء من جملتها وجب الفتح، نحو: عندي أن الدين وقاية من الشرور... أول جملة الصلة، بحيث لا يسبقها شيء منها، نحو: أحترم الذي إنّه عزز النفس عندي، وكذلك في أول جملة الصفة التي موصوفها اسم ذات، نحو: أحب رجلاً إنّه مفيد. وفي أول جملة الحال أيضاً، نحو: أجل الرجل إنّه يعتمد على نفسه... صدر جملة جواب القسم وفي خبرها اللام، سواء أكانت جملة القسم اسمية، نحو: لعمرك إن الحذر مطلوب، أم كانت فعلية فعلها مذكور، نحو: أحلف بالله إن العدل محبوب، أو غير مذكور، نحو: والله إن الظلم لوخيم العاقبة. فإن لم يقع في خبرها اللام لم يجب كسر همزة إلا إذا كانت جملة القسم جملة فعلية فعلها محذوف، نحو: والله إن السياحة مفيدة... صدر جملة محكية بالقول... بشرط ألا يكون القول بمعنى الظن. فتكسر وجوباً في مثل: قال عليه السلام: «إن الدين يسر»... أن تقع بعد فعل من أفعال القلوب وقد علق عن العمل بسبب وجود لام الابتداء في خبرها، نحو: علمت إن الإسراف لطريق الفقر، فإن لم يكن في خبرها اللام فتحت أو كسرت، نحو: علمت أن (إن) الرياء بلاء، بفتح همزة وكسرها... أن تقع خبراً عن مبتدأ اسم ذات، نحو: الشجرة إنّها ثمرة... (بلا تا، ج ١، ص ٦٤٩-٦٥١).

ويذكر في الصفحة التالية مواضع أخرى يذكرها النحاة للكسر، ومنها أن تقع بعد "كلاً" التي تفيد الاستفتاح، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَلْبٌ﴾ (العلق ٩٦: ٧)، و﴿كَلَّا إِنَّهَا لَنظَى﴾ (المعارج ٧٠: ١٥)، أو تقع في خبرها اللام من غير وجود فعل للتعليق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الرعد ١٣: ٦)، أو تقع بعد حتى الابتدائية، نحو: يتحرك الهواء حتى إن

الغصونَ تتراقصُ، والتوابع لشيء من ذلك. ثم يعلّق بقوله: «والحق أنّ هذه المواضع ينطبق عليها الحكم الأول؛ وهو أنّها واقعة في صدر جملتها...» (المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٥٢). وقال يعقوب:

وتكسر همزة «إِنْ» وجوباً عند امتناع سببها بمصدر، وذلك في مواضع عدّة، أهمّها: ... في ابتداء الكلام، نحو الآية: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» (القدر: الآية ١) ... وتعتبر في أول جملتها إذا وقعت بعد حرف من حروف الاستفتاح، مثل: ألا، وأما؛ ومثلها واو الاستئناف ... بعد حيث، نحو: اجلس حيث إن رفقائك جالسون ... في صدر الجملة الواقعة صلة للموصول، نحو: جاء الذي إنّه فائز بالجائزة ... إذا وقعت جواباً للقسم وفي خبرها اللام، نحو: والله إنك لكريم ... بعد القول الذي لا يتضمّن معنى الظنّ، نحو الآية: «قال إني عبد الله» (مريم: الآية ٣٠) ... إذا وقعت مع ما بعدها صفة لما قبلها عن اسم عين، نحو: جاء رجلٌ إنّه كريمٌ ... خبراً عن اسم عين، نحو: محمدٌ إنّه رسولٌ ... إذا اتصلت بخبرها لام الابتداء. نحو الآية: «والله يعلمُ إنك لرسولُهُ» (المنافقون: ١) ... بعد حتى التي تفيد الابتداء، نحو: إنّي تعبتُ حتى إنني لا أستطيعُ المشيَ (١٩٨٨م، ص ١٥٩).

ويُجمل شوقي ضيف مواضع كسر همزة «إِنْ» كما يلي: في ابتداء الجملة، وبعد «ألا» الاستفتاحية التي يعتبرها ضمن المواضع الأول، وبعد القول، وفي جواب القسم. ويُعرض عن ذكر المواضع الأخرى «لأنها غير متداولة على الألسنة وأيضاً غير متداولة في اللغة الأدبية» (بلا تا، ص ١٤٨).

٣-٣. جواز الفتح والكسر

قال ابن مالك في ألفيته:

بَعْدَ إِذَا فِجَاءٌ أَوْ قَسَمٍ لَا لَامَ بَعْدَهُ بِوَجْهَيْنِ نُمِي
مَعَ تَلْوِيفِ الْجَزَا، وَذَا يَطْرُدُ فِي نَحْوِ: خَيْرُ الْقَوْلِ إِنِّي أَحْمَدُ

وعلق ابن عقيل على البيتين بقوله:

يعني أنّه يجوز فتح «إِنْ» وكسرها إذا وقعت بعد إذا الفجائية، نحو: خرجتُ فإذا إنَّ زيدا قائمٌ، فمن كسرها جعلها جملة، والتقدير: خرجتُ فإذا زيدا قائمٌ، ومن فتح جعلها مع صلتها مصدراً، وهو مبتدأ خبره إذا الفجائية... ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً... وكذا يجوز فتح «إِنْ» وكسرها إذا وقعت جواب قسم، وليس في خبرها اللام، نحو: حلفتُ أنَّ زيدا قائمٌ (بالفتح والكسر)... وكذا يجوز الفتح والكسر إذا وقعت «إِنْ» بعد فاء الجزاء، نحو: مَنْ يَأْتِنِي فَإِنَّهُ مُكْرَمٌ، فالكسر على جعل «إِنْ» ومعموليها جملة أُجيب بها الشرط، فكأنه قال: مَنْ يَأْتِنِي فَهُوَ مُكْرَمٌ، والفتح على جعل «أَنَّ» وصلتها مصدراً مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير: من يأتيني فإكرامه موجودٌ... وكذلك يجوز الفتح والكسر إذا وقعت «إِنْ» بعد مبتدأ هو في المعنى قول، وخبر «إِنْ» قول، والقائل واحد، نحو: خيرُ القولِ إني أحمدُ الله، فمن فتح جعل «إِنْ» وصلتها مصدراً خبراً عن «خير» والتقدير: خيرُ القولِ حمدُ الله... وكذلك «خيرُ القولِ» مبتدأ و«إني أحمدُ الله» خبره، ولا تحتاج هذه الجملة إلى رابط لأنّها نفس المبتدأ في المعنى (١٣٨٤هـ.ش، ج ١، ص ٣٥٥-٣٦٢).

وقد ذكر عباس حسن في النحو الوافي، المواضع الأربعة التي جاءت في شرح ابن عقيل وأضاف إليها موضعاً خامساً، هو «أن تقع بعد فعل من أفعال القلوب وليس في خبرها اللام... نحو: علمتُ أنّ الدينَ عاصمٌ من الزلزلِ» (بلا تا، ج ١، ص ٦٥٤). وكان قد ذكر قبل ذلك: «أن تقع بعد فعل من أفعال القلوب وقد علّق عن العمل بسبب وجود لام الابتداء في خبرها، نحو: علمتُ إنَّ الإسرافَ لطريقُ الفقيرِ، فإن لم يكن في خبرها اللام فتحت أو كُسرت، نحو: علمتُ أنّ (إنَّ) الرياءَ بلاءٌ، بفتح الهمزة وكسرها» (المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٥١).

وذكر يعقوب أربعة موارد من الموارد الخمسة التي جاءت في النحو الوافي ولم يذكر وقوعها بعد مبتدأ هو في المعنى قول وخبر «إنّ» قول والقائل واحد، وزاد عليها موضعين، الأوّل أن تقع في موضع التعليل، نحو الآية: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنََّّ (أَنَّ) صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة ٩: ١٠٣)، والثاني أن تقع بعد واو مسبوقه بمفرد صالح للعطف عليه، نحو الآية: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١﴾ وَإِنَّكَ (وَأَنَّكَ) لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ (طه ٢٠: ١١٨-١١٩) (١٩٨٨ م، ص ١٥٩).

وقد لخص عبد السلام هارون محقق الكتاب، مواضع الكسر والفتح كما يلي: «مواضع كسر همزة إنّ: في الابتداء، بعد القول، بعد كل ما يفيد الحكاية، بعد حتى الابتدائية، بعد الفعل المعلق باللام، وفي صدر الجملة الحالية، وفي صدر جملة الصلة، وبعد اليمين وشبهه، وفي جواب أمّا. مواضع فتح همزة إنّ: بعد القول بمعنى الظن، بعد لو ولولا وحتى الجارة وشدّما وعزّما ولاجرم وبتقدير لام التعليل قبلها والباء ومن وفي جواب أمّا قليلاً، وإذا كانت مبنية على ما قبلها في نحو: أحقاً أنك ذاهب. وجواز الأمرين: بعد أي وأمّا وإذا الفجائية والعطف بالواو وثم وبعد لبيك وذلك المتلوة بواو العطف» (١٩٨٨ م، ج ٥، ص ٢٦٦).

وخلاصة الأمر أنّ «إنّ» تُفتح وجوباً إن صحّ سببها مع معموليها بمصدر، وتكسر وجوباً في ستة مواضع لا يصح سببها مع معموليها بمصدر في تلك المواضع ويجوز الأمران إن اختلف واحد من شروط كسرها وجوباً. والحق أنّ من يدقق في أمثلة جواز الفتح والكسر، الحالة الثالثة من حالات «إنّ»، يُدرك مدى التعسّف فيه، إلا ما جاء في الكتاب، وأنّه قد يكون من وضع النحاة أو هو ناشئ من القراءات أو التفسيرات المختلفة للآيات القرآنية الكريمة، حتى لتكون القاعدة التي يؤمن بها النحويون (عدم التقدير أولى من التقدير)، تكون تلك القاعدة معكوسة، أي يكون التقدير أولى من عدم التقدير، لذلك نرى أنّ شوقي ضيف لا يذكره في تجديد النحو ولا يشير إليه، بل يهمله كأنّه غير موجود في النحو العربي.

٤- مسألة التوكيد

بعد أن عرفنا مواضع كسر همزة «إنّ» وفتحها وجوباً وجوازاً والتي وردت في عدد من المصادر المعتمدة حالياً، بقيت مسألة مهمة في هذا المجال، وهي وظيفة «إنّ» و«أنّ» أو معناهما الذي تؤديانه؛ إذ نصّت المصادر السالفة وغيرها على أنّ وظيفة «إنّ» و«أنّ» هي التوكيد، وهي ليست مبتكرة، بل مأخوذة من كتب قديمة، حيث جاء في كتاب المقرّب، على سبيل المثال، قوله في معاني إنّ وأخواتها: «وهي: (إنّ وأنّ) ومعناها التأكيد...» (١٩٩٨ م، ص ١٦٤). كما جاء في معاني النحو: «واختلف في كون (أنّ) مؤكّدة أو لا، فذهب أكثر النحاة إلى أنها مؤكّدة مثل (إنّ) وأنها فرع عليها» (٤٣٤ هـ. ق، ج ١، ص ٢٧١). وهنا تبرز إشكالية تتلخّص في أنّ «إنّ» أو «أنّ» الحرف المشبّه بالفعل يتكون من حرفين: همزة مكسورة أو مفتوحة ونون مشدّدة، وهنا تُطرح عدّة أسئلة، وليست هذه الأسئلة بديلاً عن سؤالي البحث، بل هي في إطارهما وهي محاولة للوصول إلى جواب مقنع لهما:

- ما هي علامة التوكيد في «إنّ» و«أنّ»؟

- هل هي الهمزة المكسورة أو المفتوحة أو هي النون المشدّدة؟

- لماذا يجب كسر همزة «إنّ» إن اتصلت اللام بخبرها، حتى وإن كانت في وسط الكلام، فهل اللام هي علّة كسرها، فإن زالت

زال الكسر، أو يجوز بقاؤه، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولُهُ﴾ (المنافقون ٦٣: ١)؟

- إذا كانت «إنّ» و«أنّ» كلتاها للتوكيد وهما فيه سواء فلماذا تلحق اللام خبر «إنّ» ولا تلحق خبر «أنّ»؟

- هل هناك فرق من الناحية الصوتية، بين لفظ «إنّ» ولفظ «أنّ»، أي لفظ الهمزة مكسورة ومفتوحة؟

- إِنَّ جواز كسر همزة «إِنَّ» أو فتحها بعد أفعال القلوب يثير هذا السؤال: ما الفرق في المعنى بين «إِنَّ» و«أَنَّ» إن كانتا كلتاهما للتوكيد؟

- هل يتغير معنى الجملة بشكل أساسي إن دخلت اللام على خبر «إِنَّ» بعد فعل من أفعال القلوب وتم كسر همزتها؟

- لماذا لا يجوز أو لا يصح تأويل «إِنَّ» مع صلتها، حتى وإن كانت في وسط الكلام؟

ولنحاول الآن الإجابة على تلك الأسئلة تباعاً، فنقول في جواب السؤال الأول (ما هي علامة التوكيد في «إِنَّ» و«أَنَّ»؟ هل هي الهمزة المكسورة أو المفتوحة أو هي النون المشددة؟):

إِنَّ من المسلّم به أَنَّ التشديد لا يُعتبر علامة على التوكيد، على الأقلّ في هذا المجال، فليست النون المشددة من علامات التوكيد، بل هي علامة على الإدغام الذي هو تكرار للحرف، وهو كما عرفه سيبويه بقوله: «والإدغام إنما يدخل فيه الأول في الآخر والآخر على حاله ويقرب الأول فيدخل في الآخر حتى يصير هو والآخر من موضع واحد» (١٩٨٨م، ج ٤، ص ١٠٤). وصرّح في موضع آخر بأنهم لجأوا إلى التشديد هروباً من التضعيف، معتبراً التشديد إدغاماً. قال: «اعلم أن التضعيف يثقل على ألسنتهم وأن اختلاف الحروف أخف عليهم من أن يكون من موضع واحد. ألا ترى أنهم لم يجيئوا بشيء من الثلاثة على مثال الخمسة نحو ضَرَبَ ولم يجيء فَعَلَّ ولا فَعَلَّ إلا قليلاً ولم يبنوهن على فَعَالٍ كراهية التضعيف وذلك لأنه يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ثم يعودوا له فلما صار ذلك تعباً عليهم أن يداركوا في موضع واحد ولا تكون مهلةً كرهوه وأدغموا لتكون رفعةً واحدة وكان أخف على ألسنتهم مما ذكرت لك» (المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤١٧). وقال ابن جنّي تحت عنوان «باب في الإدغام الأصغر» في الخصائص:

قد ثبت أن الإدغام المألوف المعتاد إنما هو تقريب صوت من صوت. وهو في الكلام على ضربين: أحدهما أن يلتقي المثان على الأحكام التي يكون عنها الإدغام، فيدغم الأول في الآخر. والأول من الحرفين في ذلك على ضربين: ساكن ومتحرك؛ فالمدغم الساكن الأصل كطاء قطع، وكاف سكر الأوليين؛ والمتحرك نحو دال شدّ، ولام معتلّ. والآخر أن يلتقي المتقاربان على الأحكام التي يسوغ معها الإدغام، فتقلب أحدهما إلى لفظ صاحبه فتدغمه فيه. وذلك مثل (ودّ) في اللغة التميمية، وأمّحى، وإمّاز، وإصبر، وإثاقل عنه. والمعنى الجامع لهذا كله تقريب الصوت من الصوت؛ ألا ترى أنك في قطع ونحوه قد أخفيت الساكن الأول في الثاني حتى نبا اللسان عنهما نبوة واحدة، وزالت الوقفة التي كانت تكون في الأول لو لم تدغمه في الآخر؛ ألا ترى أنك لو تكلفتم ترك ادغام الطاء الأولى لتجشمت لها وقفة عليها تمتاز من شدة مازجتها للثانية بها؛ كقولك قطع وسككر، وهذا إنما تحكمه المشافهة به. فإن أنت أزلت تلك الوقفة والفترة على الأول خلطته بالثاني فكان قربه منه (وادغامه) فيه أشدّ لجذبه إليه وإلحاقه بحكمه. فإن كان الأول من المثليين متحركاً ثم أسكنته وادغمته في الثاني فهو أظهر أمراً، وأوضح حكماً؛ ألا ترى أنك إنما أسكنته لتخلطه بالثاني وتجذبه إلى مضامته ومماسّة لفظه بلفظه بزوال الحركة التي كانت حاجزة بينه وبينه. وأمّا إن كانا مختلفين ثم قلبت وادغمت، فلا إشكال في إيثار تقريب أحدهما من صاحبه؛ لأن قلب المتقارب أوكد من تسكين النظير (ج ١، ص ٤٩٥).

كما عرفه أبو علي الفارسي بقوله: «الإدغام أن تصل حرفاً ساكناً بحرف مثله من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف فيرتفع اللسان عنهما ارتفاعاً واحدة، وذلك قولك مُدٌّ وفِرٌّ وعَضٌّ» (١٩٩٩م، ص ٦١٤). واعتبره إبراهيم الشمسان ظاهرة صوتية جاءت لتزليل معضلة في النطق؛ إذ قال إِنَّ الإدغام «ظاهرة صوتية تهدف إلى تجنّب ما يحدثه تجاوز صوتين متماثلين من عبء عند إخراجهما» (١٤٢٠هـ، ص ٤٨). إذن، التشديد هو إدغام، والإدغام جاء لحلّ مشكلة في النطق.

وإذا أخرجنا النون المشددة من سبب التوكيد الموجود في «إِنَّ» و«أَنَّ» لا يبقى لدينا إلا الهمزة؛ مكسورة أو مفتوحة، فأيهما للتوكيد؟ من المسلم به أَنَّ التوكيد ثابت لـ«إِنَّ»، وهو ما نصّت عليه جميع المصادر السالفة، إضافة إلى أننا نلاحظ بقاء التوكيد في «إِنَّ» المخففة من الثقيلة بعد أن تدخل اللام على خبرها. فقد قال ابن هشام: «كما يجوز الإعمال والإهمال في ليثما، كذلك يجوز في إنَّ المكسورة إذا خُفِّت، كقولك: إنَّ زيدا لمُنطلقاً وإنَّ زيدا مُنطلقاً» (١٩٩٤م، ص ٢٥٨). ومن الواضح أَنَّ ابن هشام، هنا، ليس بصدد إثبات أو نفي التوكيد، لكنّه يتبيّن من الأمثلة بقاء التوكيد مع «إِنَّ» وعدم بقائه، مع «أَنَّ» المخففة، حيث تتحوّل إلى أداة ربط. والأكثر من ذلك أَنَّ هناك من الآراء التفسيرية ما يعتبر «إِنَّ» في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى ٨٧: ٩)، بمعنى "قد" التي هي للتحقيق بسبب دخولها على الفعل الماضي، والتحقيق يعتبر توكيداً. لكنّ هذا الأمر لا يرتبط ببحثنا إلا من بعيد؛ على اعتبار أَنَّ إهمال «إِنَّ» لم يُبقِ منها سوى معناها وسوّغ لها الدخول على الجمل الفعلية.

ويرى مهدي المخزومي أَنَّ «إِنَّ» لتوكيد النسبة في الجمل ويعتبر أَنَّ وظيفتها هي «تثبيت الشيء» حين يكون المخاطب طالباً ذلك» (١٩٨٦م، ص ٢٣٧). والمقصود بالتثبيت هو تثبيت وإرساء التوكيد، والنسبة هي النسبة بين مفردات الجملة، وخاصة بين اسم «إِنَّ» وخبرها، وهو ما يُعبّر عنه بالإسناد أو الحمل.

ونقول في جواب السؤال الثاني "لماذا يجب كسر همزة «إِنَّ» إن اتصلت اللام بخبرها، حتى وإن كانت في وسط الكلام، فهل اللام هي علّة كسرها، فإن زالت زال الكسر، أو يجوز بقاؤه، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ (المنافقون ٦٣: ١)"، إنَّ النحاة يعتبرون اللام سبباً لكسر همزة «إِنَّ»، أو كما يعبرون عن ذلك سبباً لتعليق الفعل عن العمل، وإذا سلّمنا بذلك لـ«إِنَّ» التي تدخل اللام على صلتها فكيف نسلّم به لـ«أَنَّ» وصلتها تخلو من اللام؟ فجملة «إِنَّ» أو «أَنَّ» مع صلتها تسدّ مسدّ مفعولي علم، فهي مفعول به، وفتح الهمزة وكسرها في ذلك سواء. وهكذا نرى أنّه لو كانت اللام سبباً لتعليق الفعل عن العمل لما استطاعت «أَنَّ» مع صلتها أن تسدّ مسدّ مفعولي علم. المهمّ أنّ زوال اللام يتبعه زوال الكسر، ولكن ليس وجوباً، وهذا تناقض. وبما أَنَّ اللام قد جاءت لغرض واحد فقط، وهو التوكيد فإنها تدخل على ما يناسبها سنخاً، وهو «إِنَّ» المكسورة الهمزة ولا تدخل على المفتوحة الهمزة أبداً.

٥- «أَنَّ» ليست للتوكيد

وفي جواب السؤال الثالث "إذا كانت «إِنَّ» و«أَنَّ» كلتاهما للتوكيد، وهما فيه سواء فلماذا تلحق اللام خبر «إِنَّ» ولا تلحق خبر «أَنَّ»؟"، نقول: إذا كانت «إِنَّ» و«أَنَّ» كلتاهما للتوكيد فيجب أن تبقى «أَنَّ» على فتحها دون تغيير عند دخول اللام على خبرها.

١. جاء في شرح الدماميني على معني السبب: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى: ٩)، أي: قد نفعت ذكرك، إذ بها قد حصل إيمان كثير من الناس، ولا يظهر كونها شرطية إذا الشرط فيها غير مراد، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بالذكورى نفعت أو لم تنفع، فإذا جعلت بمعنى قد لم يكن ثم شرط وكان الأمر بالتذكير مطلقاً» (٢٠٠٧م، ج ١، ص ٩٦). وانظر في تفسير الآية (تفسير نمونه = التفسير الأمثل) باللغة الفارسية (قرص مدمج)، حيث جاء ما مؤداه: وهناك احتمال أيضاً أَنَّ «إِنَّ» ههنا ليست «شرطية»، بل هي بمعنى «قد» وللتوكيد والتحقيق، ومفهوم الجملة هو: ذكر، حيث إنَّ الذكرى مفيدة ونافعة. وإليك النص الفارسي كما ورد: «اين احتمال نيز داده شده كه «إن» در اينجا «شرطيه» نباشد، بلكه به معنى «قد» وبراى تأكيد و تحقيق است و مفهوم جمله اين است: تذكره كه تذكر مفيد و سودمند است».

فليس هناك ما يُسوِّغ كسر همزتها، لأنَّ معنى الجملة لن يتغيَّر بعد دخول اللام سوى إضافة توكيد إلى التوكيد السابق. هذه مسألة، والمسألة الأخرى هي إمكانية زوال الكسر بعد زوال اللام، فنكون بالخيار؛ إن أردنا فتحنا همزة، ويمكن أن تبقى على كسرهما أيضاً. وليس معنى ذلك أنَّ التوكيد الحاصل هو بسبب دخول اللام فقط، بل معناه أنَّ اللام المرحلة لا تدخل إلا على جملة مؤكَّدة سابقاً. وقد مرَّ بنا، سابقاً، قول عباس حسن حول وجوب فتح «أَنَّ» واستثناؤه بعد ذلك بقوله: «يجوز أن يكون الفعل خارجاً عن الإطارين السابقين [الدلالة على العلم الثابت واليقين، وألا يقع قبلها شيء من ألفاظ الطمع، التوقع، والإشفاق والرجاء]، فيكون ظناً أو شكاً» (بلا تا، ج ١، ص ٦٤٤). أقول: فهل يتناسب الظنَّ والشك مع التوكيد إن كانت «أَنَّ» للتوكيد؟ كما قال في موضوع فتح وكسر همزة «إِنَّ» جوازاً: «لإن لم يكن في خبرها اللام فُتحت أو كُسرت، نحو: علمت أنَّ (إنَّ) الرِّياءَ بلاءً، بفتح الهمزة وكسرها» (المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٥١)، فلا فرق بين الفتح والكسر، وكأنَّ اللغة العربية لغة عشية. ويؤكد عدم كون «أَنَّ» للتوكيد تصريح مهدي المخزومي بذلك، نقله، على طوله، للفائدة، حيث قال:

أما كون أنَّ خلواً من التوكيد فذلك ما يلاحظ من استعمالاتها، لأنها كما تجيء بعد أفعال تدلُّ على الاعتقاد أو اليقين، نحو: علمتُ أنك على حقٍّ، وأيقنتُ أنك على صواب، تجيء بعد أفعال تدلُّ على الظنِّ أو على الشكِّ أيضاً، نحو: ظننتُ أنك مخطئٌ وأشكُّ أنك مصيبٌ. أنَّ، كما يزعم النحاة، تؤكد ما بعدها وتحققه كما تؤكد إنَّ المكسورة الهمزة ما بعدها وتحققه ويمثلون لها غالباً ما يُشعر بالتوكيد ويصدرون القول بالعلم أو الاعتقاد أو اليقين، نحو: علمتُ أنك مسافرٌ، وأيقنتُ أنك تجيء، ونحوهما. ولكن أيقنتُ لها مثل هذه الدلالة لو سُبقت بظن أو شك؟ أو ليس هناك من التعارض الواضح بين ما زعموه لها من توكيد ما بعدها وتحقيقه وما سبقتها من ظنٍّ وشكٍّ؟ والظنُّ رجحان أحد الطرفين، لا الاعتقاد بأحدهما، والشكُّ تساوي الطرفين فضلاً عن رجحان أحدهما على الآخر، فكيف يتسلط الظنُّ والشكُّ على ما نُصِّ على تحقُّقه؟ (١٩٨٦م، ص ٣١٦ - ٣١٧).

وقد أصرَّ فاضل السامرائي على كونها للتوكيد بقوله: «والصواب أنها تدلُّ على التوكيد إضافة إلى ما ذكرناه من المعاني، فقولك (علمتُ أنَّ محمداً قائمٌ) أكد من قولك (علمتُ محمداً قائماً) إضافة إلى إيقاع الجملة المؤكَّدة موقع المفرد، أي علمتُ هذا الأمر» (١٤٣٤هـ، ج ١، ص ٢٧٢). وقال في الصفحة التالية: «ومما يدل على أنها للتوكيد أنَّ القرآن الكريم إذا قرن الظنُّ بها أفاد اليقين» (المصدر نفسه، ص ٢٧٣). أقول: ليس هناك دليل على أنَّ جملة "علمتُ أنَّ محمداً قائمٌ" أكثر تأكيداً من قولك "علمتُ محمداً قائماً" سوى الذوق، وهو لا يصلح دليلاً، كما أن إفادتها اليقين عند اقتران الظنِّ بها في القرآن الكريم ليست دليلاً على كونها للتوكيد، فالقرآن الكريم له سياقاته واستعمالاته الخاصة به ولا يمكن تعميمها. فالقرآن - على سبيل المثال - يستخدم الزمن الماضي بدل المستقبل والحاضر، فهل يحق لنا ذلك؟ هذا، إضافة إلى أنَّ إثباته التوكيد لـ«أَنَّ» مردود بما ذكره المخزومي.

ولا يفوتنا - هنا - أن نشير إلى رأي سيبويه الذي شدَّت عنه كثير من الكتب النحوية وكذا رأي ابن هشام المؤيد له. قال سيبويه: «أما «أَنَّ» فهي اسم وما عملت فيه صلة لها كما أنَّ الفعل صلة لأن الحظيفة وتكون أن اسماً. ألا ترى أنك تقول: قد عرفت أنك منطلقٌ فأنتك في موضع اسم منصوب كأنك قلت: قد عرفت ذلك. وتقول: بلغني أنك منطلقٌ فأنتك في موضع اسم مرفوع كأنك قلت: بلغني ذلك. فإنَّ الأسماء التي تعمل فيها صلة لها كما أنَّ أن الأفعال التي تعمل فيها صلة لها» (١٩٨٨م، ج ٣، ص ١١٩ - ١٢٠). وقال في "باب تكون فيه أنَّ بدلاً من شيء هو الأول وذلك قولك: بلغني قصَّتكَ أنك فاعلٌ وقد بلغني الحديثُ أنَّهم منطلقون وكذلك القصَّة وما أشبهها" ثم استطراد يلا فصل قائلاً:

هذا باب تكون فيه أنَّ بدلاً... من ذلك: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنَّها لكم) (الأنفال: ٧) فإنَّ مبدلة من إحدى الطائفتين موضوعة في مكانها كأنك قلت: وإذ يعدكم الله أنَّ إحدى الطائفتين لكم كما أنَّك إذا قلت: رأيت متاعك بعضه فوق

بعض فقد أبدلت الآخر من الأول وكأنت قلت: رأيت بعض متاعك فوق بعض كما جاء الأول على معنى وإذا يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم. ومن ذلك قوله عز وجل: (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون). (يس: ٣١) فالمعنى والله أعلم: ألم يروا أن القرون الذين أهلكناهم إليهم لا يرجعون. ومما جاء مبدلاً من هذا الباب: (أيعدكم أنكم إذا مئتم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون) (المؤمنون: ٣٥) فكأنه على: أيعدكم أنكم مخرجون إذا مئتم وذلك أريد بها ولكنه إنما قدمت أن الأولى ليعلم بعد أي شيء الإخراج. ومثل ذلك قولهم: زعم أنه إذا أتاك أنه سيفعل وقد علمت أنه إذا فعل أنه سيمضي. ولا يستقيم أن تبتدىء إنَّها هنا كما تبتدىء الأسماء أو الفعل إذا قلت: قد علمت زيداً أبوه خير منك وقد رأيت زيداً يقول أبوه ذاك لأنَّ لا تبتدأ في كل موضع وهذا من تلك المواضع. وزعم الخليل: أن مثل ذلك قوله تبارك وتعالى: (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأنَّ له نار جهنم) (التوبة: ٦٣) وسمعناهم يقولون في قول ابن مقبل:

وعلمي بأسدالم المياه فلم تنزل قلائص تخدي في طريق طلائح
وأني إذا ملت ركابي مئتمها فلئني على حظي من الأمر جامح

وإن جاء في الشعر قد علمت أنك إذا فعلت إنَّك سوف تغتبط به تريد معنى الفاء جاز. والوجه والحد ما قلت لك أول مرة. وبلغنا أن الأعرج قرأ: (أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإِنَّه غفور رحيم) (الأنعام: ٥٤). ونظيره ذا البيت الذي أنشدتك (المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٢-١٣٤).

وجاء في معني اللبيب: «(أن) المفتوحة المشددة النون، على وجهين؛ أحدهما: أن تكون حرف توكيد، تنصب الاسم وترفع الخبر، الأصح أنها فرع عن إن المكسورة... والأصح أيضاً أنها موصول حرفي مؤول مع معموليه بالمصدر، فإن كان الخبر مشتقاً بالمصدر المؤول به من لفظه، فتقدير «بلغني أنك تنطلق» أو «أنتك منطلق» بلغني الانطلاق، ومنه «بلغني أنك في الدار» التقدير استقرارك في الدار» (٢٠٠٠م، ج ١، ص ٣٩). وعلى العكس من «إن» المخففة، لا نلاحظ علامات على توكيد «أن» المخففة رغم ادعاء النحاة إعمالها، فهي ليست أحسن حالاً من الثقيلة، بل تسير على خطاها. فقال صاحب المعجم المفصل في الإعراب: «أن المخففة من أن الثقيلة؛ وهي حرف مبني على السكون لا محل له من الإعراب، تقع بعد فعل من أفعال العلم أو اليقين، وبعض النحاة يرى أنها لا تعمل والجمهور يعملها، نحو قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (المزمل: ٢٠)» (٢٠٠٧م، ص ٧٨).

والواقع أن الذي نراه في الأمثلة التي ذكرها النحاة لـ«أن» المخففة أنها ليست سوى حرف ربط للجمل؛ اسمية كانت أو فعلية. فقد قيل في شروط إعمالها أن يكون اسمها ضمير شأن محذوفاً، وفي خبرها أن يكون جملة اسمية كانت أو فعلية (الأنصاري، ١٩٩٤م، ص ١٤٥). فهل يمكن لأحد أن يأتي بدليل على عملها فضلاً عن كونها للتأكيد بعد مشاهدة هذه الشروط غير المرتية؟ تأمل معي هذه الأمثلة: الخبر جملة اسمية: ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ١٠)، والخبر جملة فعلية فعلها جامد: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ (الأعراف: ٧)، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم: ٥٣)، والخبر جملة فعلية فعلها متصرف: ﴿وَنَعْلَمُ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ (النور: ٢٤: ٩) (الأنصاري، ١٩٩٤م، ص ١٤٦). هذه هي الأمثلة التي يدعي النحاة أنها دليل على إعمال «أن» المخففة، فهل أحسست أن «أن» المخففة قد أفادت توكيداً لما بعدها؟ والآن، ألا توافقني الرأي أن «أن» المخففة هنا ليست سوى حرف ربط للجمل؛ اسمية كانت أو فعلية؟

والسؤال الثالث يثير مسألة منطقية هي أنه ليس هناك ما يسوغ، من الناحية المنطقية، كسر همزة «أن» في وسط الكلام بعد دخول اللام على خبرها، فليس هناك فرق في المعنى بين الأمرين، أعني الكسر والفتح، وسوف يكون ذلك عبثاً، واللغة العربية

التي اختارها الباربي تعالى وعاء لمعجزته الخالدة ليست عبثية. ثم أَنَّ فتح الهمزة أسهل من كسرها، فلماذا يبذل المتكلم جهداً إضافياً للفظ الهمزة مكسورة، بينما الأمر سيان في الكسر والفتح ولن يحصل تغيير في معنى الجملة.

والسؤال الرابع "هل هناك فرق، من الناحية الصوتية، بين لفظ «إِنَّ» ولفظ «أَنَّ»، أي لفظ الهمزة مكسورة ومفتوحة؟"، في الواقع، يتعلّق بعلم الأصوات اللغوية أكثر من تعلّقه بالنحو، حيث إنَّ علوم اللغة يكمل أحدها الآخر، لأنّها تابعة من منشأ واحد هو اللغة التي هي مجموعة متكاملة. وجواباً نقول: إنَّ لفظ الهمزة مكسورة في وسط الكلام يُحدث سكتة فيه تؤدّي إلى أن يشعر السامع بانقطاع تيار الهواء أو سلسلة الكلام والبدء ثانية بعد السكتة وهو ما يُشعر السامع بالنبر على ذلك الحرف أو تلك الكلمة دون غيرها، ومن المعلوم أنَّ اللغة أصوات وليست حروفاً مكتوبة، فأَيُّ تغيير صوتي يُحدث تغييراً في المعنى. كلُّ ذلك يدفعنا إلى الحديث عن النبر، فما هو النبر؟

٦- النبر

تحدث سيبويه عن مخرج الهمزة قائلاً: «والحروف العربية ستة عشر مخرجاً. فللحلق منها ثلاثة. فأقصاها مخرجاً: الهمزة والهاء والألف» (١٩٨٨م، ج ٤، ص ٤٣٣). وتحدث عن صفاتها، حيث خصّها بصفتي الجهر والشدّة بقوله: «فأما المجهورة فالهمزة... فالمجهورة: حرفٌ أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النَّفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت. ومن الحروف الشديد وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه وهو الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والتاء والذال والباء. وذلك أنك لو قلت ألحج ثم مددت صوتك لم يجر ذلك» (المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٣٤). وجاء في المقتضب تحت عنوان «هذا باب الهمز»: «اعلم أنَّ الهمزة حرف يتباعد مخرجه عن مخارج الحروف، ولا يشركه في مخرجه شيء، ولا يداينه إلّا الهاء والألف... الألف، هواء في الحلق يسمّيها النحويون: الحرف الهاوي. والهاء خفية تقارب مخرج الألف، والهمزة تحتها جميعاً، أعني الهمزة المحقّقة، فلتباعدتها من الحروف، وثقل مخرجها، وأنها نبرة في الصدر، جاز فيها التخفيف» (١٩٩٤م، ج ١، ص ١٨٩).

إنَّ البحث في التوكيد الناتج من النبر على الهمزة المكسورة يدعونا إلى شيء من التوسّع في دراسته، حيث قال عنه حازم علي كمال الدين: «النبر هو تميّز مقطع من مقاطع الكلمة أو الوحدة اللغوية بضغط زائد، وهذا الضغط الزائد يجعل ذلك المقطع يتميّز عن بقية المقاطع بالوضوح النسبي» (١٩٩٩م، ص ٩٥). ونشاهد مثل هذا لدى الخولي، لكنه يفرّق بين المتكلم والسامع في النبر، يقول: «وإذا كان المقطع منبوراً فإنّه يتطلّب طاقة زائدة من المتكلم تجعل نواة المقطع أكثر بروزاً من سواها من الأصوات من حولها. أما السامع فيحسن أنّ نواة المقطع المنبور أعلى من سواها من الأصوات غير المنبورة» (١٩٨٢م، ص ١٦٩). ويتوسّع كمال بشر في المسألة أكثر فيذكر النبر في اللغة والاصطلاح قائلاً: «النبر في اللغة معناه البروز والظهور... وهذا المعنى ملحوظ في دلالاته الاصطلاحية؛ إذ هو في الدرس الصوتي يعني نطق مقطع من مقاطع الكلمة بصورة أوضح وأجلى نسبياً من بقية المقاطع التي تجاوره» (٢٠٠٠م، ص ٥١٢). ثم يتطرق إلى النبر على مستوى الجملة يقول: «أما على مستوى الجملة فإنّ للنبر وظائف بالغة الأهمية، إنّه عند تنوّع النبر ودرجاته يفيد التأكيد emphasis أو المفارقة contrast» (المصدر نفسه، ص ٥١٥). وهذا هو ما يهمنّا هنا؛ لأنّ «إِنَّ» لا تؤكد نفسها، بل تؤكد ما بعدها أو بالأحرى، جملتها،

وهو ما أطلق عليه المخزومي اسم توكيد النسبة، كما مرّ بنا سابقاً، لكنّ ذلك التوكيد لم ينشأ بسبب موضع كلمة ما في الجملة، بل هو ناتج عن طبيعة كلمة «إنّ» الأكوستيكي الفيزيائي، أي ما يتعلّق بطبيعة نطقها ومخرجها الصوتي.

والسؤال الخامس الذي يقول: "إنّ جواز كسر همزة «إنّ» أو فتحها بعد أفعال القلوب يثير هذا السؤال: ما الفرق، في المعنى، بين «إنّ» و«أنّ» إن كانتا كلتاهما للتوكيد؟" هو امتداد للسؤال الثالث أو تكملة له، وجواباً نقول: قال صاحب النحو الوافي حول فتح أو كسر همزة «إنّ» في جملة: علمت أنّ (إنّ) الرياء بلاءً، ما يلي: «فالتح على اعتبار الفعل غير معلق، والكسر على اعتباره معلقاً، وأداة التعليق هي (إنّ) مكسورة الهمزة، إذ لها الصدارة في جملتها وكلّ ما له الصدارة يُعدّ من أدوات التعليق...» (بلا تا، ج ١، ص ٦٥١ - هامش رقم ٣). أقول: لم يذكر الشرتوني «إنّ» ضمن المعلقات التي حصرها بقوله: "المعلقات هي «ما وإن ولا» النافيات و«لام» الابتداء و«لام» القسم و«لو» الشرطيّة و«كم» الخبريّة والاستفهام و«لعلّ»، نحو: «لا أدري متى السفر» و«ظننتُ لجرير أشعر من الأخطل» و«علمتُ ليقومنّ زيد» و«لنعم أيّ الحزبين أمضى سيفاً» و«أو لم يروا كمّ أهلكتنا قبلهم من القرون» و«إن ادري لعله فتنة لكم» (١٣٨٣هـ. ش، ج ٤، ص ٢٤٢).

٧. كلمة حول التعليق

على أنّنا لا نسلّم بتبيرات عباس حسن ولا بكلام الشرتوني، فكلاهما قد أغرب عن روح اللغة، وهو ما يتضح في مسألة التعليق نفسها. فالمعروف أنّ التعليق هو، كما قال الشرتوني: «المراد بالتعليق إبطال العمل لفظاً لا محلاً لمانع» (١٣٨٣هـ. ش، ج ٤، ص ٢٤٣)، وهو إبطال مؤقت. قيل في المعجم الوسيط: «علّق القاضي الحكم لم يقطع به» (٢٠٠٤ م، ص ٦٢٢)، إذن التعليق هو عدم القطع بأمر ما وتأجيله أو إبطاله بشكل مؤقت. وهو أن يكون في الكلام ما يمنع واحداً من أفعال القلوب المتعدية إلى فعلين من نصب ذينك الفعلين. فلو لاحظنا المعلقات (أدوات التعليق) التي ذكرها الشرتوني مع أمثلتها بقوله أعلاه لرأينا أنّ الجملة التي سدّت مسدّ المفعولين هي التي قامت بالتعليق وليس الأداة وحدها، وأنّه يمكن حذف بعضها، كما أنّ هناك معلقات أخرى لم تُذكر وكان الأخرى بالشرتوني التمثيل وعدم التحديد للأدوات. فلو حذفنا "لا" من المثال الأول وقلنا: "أدري متى السفر"، فهل سيكون كلامنا مغلوطاً؟ وقال الشرتوني: «يسد مسدّ المفعولين شيان: الأول «أنّ» وصلتها نحو ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾. الثاني «أن» وصلتها كقوله ﴿زَمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾» (١٣٨٣هـ. ش، ج ٤، ص ٢٤٣). ووضّح في الصفحة التي قبلها معنى أن تسدّ الجملة مسدّ المفعولين بقوله: «متى وقعت الجملة بعد الملقّ سدّت مسدّ المفعولين إن كان الفعل يتعدّى إليهما ولم ينصب الأوّل» (المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٢)، فهل الجملة الاسمية التي تلت «إنّ» لا تعتبر من الجمل التي تسدّ مسدّ المفعولين، إن وقعت بعد الملقّ؟ وما الفرق بين "أشهد أنّك صادق" و"أشهد أنّك لصادق"، حتى تسدّ الأولى مسدّ المفعولين، بينما لا يمكن للثانية ذلك؟ فالمعيار هو الجملة وليس الملقّ. وبذلك يتبيّن أنّ كلام الشرتوني حول أدوات التعليق لا طائل تحته وأنّ فيه تناقض أيضاً. وقال في أعلى الصفحة نفسها حول كسر همزة «إنّ» وجوباً: «أن تقع بعد فعل من أفعال القلوب وقد علّق عن العمل بسبب وجود لام الابتداء في خبرها، نحو: علمتُ إنّ الإسرافَ لطريقُ الفقر» (المصدر نفسه).

وهنا ملاحظتان؛ الأولى حول التعليق، والثانية حول الفرق بين "علمتُ أنّ الرياء بلاءٌ" و"علمتُ إنّ الرياء بلاءٌ" في المعنى الذي تؤدّيه كلّ منهما لا من حيث المتاهات النحوية. فأقول أولاً: إذا كانت قاعدة "كلّ ما له الصدارة يُعدّ من أدوات التعليق" مطّردة، فلماذا لم تكن اللام، وهي لام الابتداء التي تلحق المبتدأ، لماذا لم تكن متّصلة باسم «إنّ» الذي هو مبتدأ في الأصل، دائماً، بل

نراها، أحياناً، تتزحلق لتتصل بخبرها؟ هذا، مع أنني لا أؤمن بذلك القول؛ إذ اللام هنا، في هذا التركيب، تتصل دائماً بالمتأخر عن «إِنَّ» فإن كان خبراً اتصلت به وإن كان اسماً اتصلت به كذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ (النازعات ٧٩: ٢٦)، وقال أيضاً: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون ٦٣: ١). أما أن يكون كل ما له الصدارة من أدوات التعليق فلا دليل عليه، وقد مر بنا أن شوقي ضيف لم يعدّه من مواضع كسر همزة «إِنَّ»، بل إِنَّ من النحاة من جوّز الابتداء بـ «أَنَّ»، كما جاء في شرح ابن عقيل. وكلام الشرتوني يخالفه.

وأقول ثانياً: لماذا يكسر المتكلم همزة «إِنَّ» في هذه الجملة "علمتُ إِنَّ الرباءَ بلاءٌ" ولا يفتحها، والفتح أسلس وأسهل في النطق من الكسر خاصة في الهمزة التي يؤدي كسرها إلى انقطاع في تيار الهواء وإلى إيراد ضغط أكبر منه عند لفظ الهمزة مفتوحة، وهي - كما قال صاحب النحو الوافي - «معناها التوكيد» (بلا تا، ج ١: ٦٤٤) أو كقوله في موضع آخر: «فالغالب في «إِنَّ» و«أَنَّ» التوكيد» (المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٣١). فالجهد المبذول في نطق «إِنَّ» يُعتبر هباءً أو لا طائل تحته وهو عبث إلا إذا قلنا: إِنَّ التوكيد الموجود في «إِنَّ» هو أكثر أو أشدّ من التوكيد الموجود في «أَنَّ»، وهو ما لم يقل به أحد ولم يرد عليه دليل، بل إِنَّ الثابت لدى النحاة هو أن «أَنَّ» تؤوّل مع معموليها بمصدر عادي لا يبرز فيه لها معنى، فهي مجرد حرف مصدري. كما أن المتكلم هنا يجب أن يؤكّد علمه "بلاء الرباء" الذي هو من المسلّمات ولا يؤثر فيه توكيد المتكلم أو عدم توكيده، لا فائدة من توكيد المسلّمات التي يعترف بها المخاطب.

وهناك سؤال آخر: في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ لو فرضنا أن اللام لم تكن في الآية فإنّها ستكون هكذا: والله يشهد أن المنافقين كاذبون، أي سيزول تعليق «إِنَّ» وستفتح همزتها، كما يقول بعض النحاة، وعند ذلك نستطيع تأويل «أَنَّ» ومعموليها بمصدر، هكذا: والله يشهد كذب المنافقين أو بكذب المنافقين، فما المانع أن تؤوّل الجملة عند دخول اللام وكسر الهمزة؟ هل سيختلف المعنى الذي سوف يستنبطه السامع سوى التأكيد المكرّر؟ فهل سيستنبط معنى آخر غير التأكيد المكرّر على كذب المنافقين وشهادته تعالى بذلك؟

ولتوضيح السؤال السادس "هل يتغير معنى الجملة بشكل أساسي إن دخلت اللام على خبر «إِنَّ» بعد فعل من أفعال القلوب وتم كسر همزتها؟" أخذ مثلاً على ذلك: لو أزلنا لام التوكيد من جملة "علمتُ إِنَّكَ لصادقٌ" لكانت واحدة مما يلي:

- علمتُ إِنَّكَ صادقٌ؛

- علمتُ أَنَّكَ صادقٌ.

ونستطيع تبديل «أَنَّ» ومعموليها في الجملة الثانية بمصدر مؤوّل "صدقك" سدّ مسدّ مفعولي "علمتُ"، لكننا لا نستطيع ذلك في الجملة الأولى طبعاً. هذا التأويل ليس واقعياً، بل هو فرضي لتقريب المعنى. ويقول النحويون إن امتناع التأويل هو بسبب كسر همزة «إِنَّ» في الجملة الأولى. ولو سألنا: ما هو الفارق المعنوي بين الجملتين، فإنّ الجواب سيكون: إِنَّ الصادق في الجملة الأولى مؤكّد. ونسأل ما الضير في أن نقول في تأويل الجملتين، ما يلي:

- تأويل الجملة الثانية: علمتُ صدقك؛

- تأويل الجملة الأولى: علمتُ صدقك المؤكّد أو الأكيد؟

فلماذا يُصرّ النحويون على عدم جواز التأويل مع أنّ التأويل يعني المعنى الذهني لدى المتلقّي؟ وإذا سلّمنا بجواز التأويل في حالة كسر همزة «إنّ» في وسط الكلام سلّمنا كذلك بجواز تأويلها بعد دخول اللام على خبرها.

والجدير بالذكر أنّ النحويين يعتبرون إزالة اللام من خبر «إنّ» في هذا النوع من الجمل من مواضع جواز كسر أو فتح همزة «إنّ»، بينما لم يتطرّق شوقي ضيف في كتابه *تجديد النحو* إلى ذكر ذلك الموضوع، كأنه لا يعترف به ويعتبره من اختراع النحويين. والمفارقة هنا أنّ لام التوكيد الداخلة على اسم «إنّ» المتأخّر يعتبرها النحاة لام الابتداء المرحلقة التي تزحلق من موضع اسم «إنّ» الذي كان مبتدأً قبل دخول «إنّ» عليه إلى موضع خبرها. لكنّ الطريف هنا أنّ تلك اللام تدخل على اسم «إنّ» إذا كان متأخراً عن خبرها، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي النَّبَابِ﴾ (آل عمران ٣: ١٩٠)، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية ٤٥: ١٣)، وقوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الجاثية ٤٥: ٣). فإذا كانت مرحلقة من موضع المبتدأ إلى موضع الخبر، فلماذا لا تبقى على زحلقها وتمتنع عن الاتصال باسم «إنّ»؟ ولكنّ الظاهر هو أنّ المسألة لا تتعلق بالخبر أو الاسم، بل المسألة صوتية لفظية أوجدتها طبيعة اللغة التي كرهت توالي المؤكّدات بلا فصل، فكانت تلك الفاصلة كلمة أو أكثر؛ سواء أكانت خبراً أو اسماً أو متعلّقاً بواحد منهما.

وفي جواب السؤال السابع "ماذا لا يجوز أو لا يصحّ تأويل «إنّ» مع صلتها، حتى وإن كانت في وسط الكلام؟"، أقول: إنّ اللغة العربية وكلّ لغة مجموعة أصوات تجري على قواعد معينة لتكون وسيلة من وسائل التوصيل أو الاتصال، كما يقول فقه اللغة. لذلك كلّ صوت فيها يجب أن يكون له مدلول أو غرض يؤدّيّه ضمن الأصوات الأخرى، والنحو يأتي ليصف اللغة لا أن يضع قوانين لها تقيدها أو كما يقرر فقه اللغة يجب أن يصف الظواهر اللغوية، وهو ما يقوم به المنهج الوصفي في دراسة اللغة، لا أن يقوم بفلسفة وتعليل الظواهر اللغوية ليقوم بعد ذلك بوضع قوانين يفرضها على اللغة والمتكلّمين بها، فيفرض على اللغة قواعد تكون في الواقع - خارجة عنها فيخضعها، مثلاً، لقوانين المنطق والفلسفة.

وهذه المسألة، أعني القاعدة النحوية التي يلهج بها النحاة أنّه لا يجوز تأويل «إنّ» مع صلتها، حتى وإن كانت في وسط الكلام، هذه القاعدة هي من مصاديق المنهج المعياري في النحو. فإذا تعدّر تأويل «إنّ» مع صلتها في أكثر مواضع كسرهما فإنّ ذلك التعدّر لا يسوّغ لنا تعميم عدم جواز التأويل على كلّ مواضع كسر همزة «إنّ»، بل الاستثناء موجود دائماً. ويجب حذف قاعدة: يجب كسر همزة «إنّ» في كل موضع لا يصحّ أن تُسبّك فيه مع معموليها بمصدر، حيث يجب الإذعان بإمكان تأويل «إنّ» مع صلتها، حتى وإن كانت في وسط الكلام. والمفارقة المضحكة هنا أنّه يجوز تأويل «إنّ» مع صلتها بمصدر مفرد إن كانت: أولاً في وسط الكلام، وثانياً: مفتوحة الهمزة، أمّا إذا أردنا كسر همزتها فلا يمكن تأويلها. فمثال: "علمتُ أنّك صادقٌ"، يمكن تأويله هكذا: "علمتُ صدقك". ولكنّ المثال: "علمتُ أنّك صادقٌ"، لا يمكن تأويله أبداً مع أنّ المثالين سواء في ما يؤدّيانه من معنى، وهذا تعسّف ظاهر. وهناك مسألة مهمّة أخرى هي أنّ مسألة إمكان التأويل وعدمه ليست مهمّة لأنّها ليست واقعيّة، فالمهمّ هو موقع جملة «إنّ» والمعنى الذي يرسمه ذلك الموقع في الذهن، إذ نبرّر، بعض الأحيان عدم تمكّنا من التقدير أو التأويل بدلالة السياق أو تفسير المذكور. ففي جملة "من يدرس ينجح" تعرب "من" مبتدأً خبره مجموع فعلي الشرط والجواب، أي بقية جملة الشرط، فما هو تأويل الخبر؟

للتوسع الأكثر حول هذا الموضوع المهم الذي يحاول تحقيق الهدف الآخر من البحث، وهو إثبات إمكانية تأويل «إنّ» في وسط الكلام، اخترت الآية الأولى من سورة المنافقين واستعنت بعدد من التفاسير المختلفة. وغايتي من ذلك معرفة كيفية تعامل المفسرين

مع اللغة والنحو بالذات باعتباره وسيلة مهمة لفهم المقاصد القرآنية، وهم المكلفون بإيصال المعاني الواضحة لقراء تفاسيرهم لنشر الوعي القرآني بين الناس. لكنني، قبل التطرق لما جاء في التفاسير المختلفة للآية، أذكر ما جاء في كتاب سيبويه حول المسألة تحت عنوان «هذا باب آخر من أبواب إن»:

تقول: أشهد إنّه لمنطلق فأشهد بمنزلة قوله: والله إنّه لذهاب. وإنّ غير عاملة فيها أشهد لأنّ هذه اللام لا تلتحق أبداً إلا في الابتداء. ألا ترى أنك تقول: أشهد لعبد الله خير من زيد كأنك قلت: والله لعبد الله خير من زيد فصارت إنّ مبتدأة حين ذكرت اللام هنا كما كان عبد الله مبتدأ حين أدخلت فيه اللام. فإذا ذكرت اللام هنا لم تكن إلا مكسورة كما أنّ عبد الله لا يجوز هنا إلا مبتدأ. ولو جاز أن تقول: أشهد أنك لذهاب لقلت أشهد بذلك. فهذه اللام لا تكون إلا في الابتداء وتكون أشهد بمنزلة وألله. ونظير ذلك قول الله عز وجل: ﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ (المنافقون: ١) وقال عز وجل: ﴿فشهدوا أحدكم أربع شهادات بالله إنّه لمن الصادقين﴾ (النور: ٦) لأنّ هذا توكيد كآته قال: يحلف بالله إنه لمن الصادقين (١٩٨٨م، ج ٣، ص ١٤٦ - ١٤٧).

والملاحظ أنّ سيبويه فسّر الشهادة في الآية الثانية بالحلف، بينما سكت عنها في الآية الأولى. لكنني أتنبه إلى مسألة قد لا ينتبه إليها كثيرون، وهي ضرورة التفريق بين الشهادة الرسمية في المحاكم التي يسبقها اليمين والشهادة غير الرسمية، ومنها الشهادة برسالة الرسول (ﷺ) في الأذان والإقامة والتشهد وغير ذلك، وهي الشهادة التي حقن بها المنافقون دماءهم.

جاء في تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن: «قوله تعالى: ﴿قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾ قيل: معنى نشهد نحلف. فعبّر عن الحلف بالشهادة... ويحتمل أن يكون ذلك محمولاً على ظاهره أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم اعترافاً بالإيمان ونفياً للنفاق عن أنفسهم، وهو الأشبه. ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ كما قاله بألسنتهم. ﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ أي فيما أظهروا من شهادتهم وحلفهم بألسنتهم. وقال الفراء: والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون بضمائرهم، فالتكذيب راجع إلى الضمائر» (٢٠٠٦م، ج ٢٠، ص ٤٩٧).

وهكذا نرى أنّ القرطبي ذكر رأي سيبويه في تأويل الشهادة بالحلف، لكنه عدل عنه إلى ما يفهم من ظاهر شهادة المنافقين وهي الشهادة بالرسالة للنبي (ﷺ)؛ لأنه هو المعنى بكلام المنافقين الذي حكاه الله في السورة فجاءوا يعتذرون منه صلى الله عليه وآله ويؤكدون كلامهم بأكثر من مؤكّد ليدفعوا عن أنفسهم شكّ المخاطبين. وقد جاء هذا المعنى بوضوح في التفسير الوسيط للقرآن الكريم. قال:

إذا حضر المنافقون إلى مجلسك - أيها الرسول الكريم - قالوا لك على سبيل الكذب والمخادعة والمداينة... نشهد أنك رسول من عند الله - تعالى - ، وأنت صادق فيما تبلغه عن ربك. وعبروا عن التظاهر بتصديقتهم له - صلى الله عليه وسلم - بقولهم (نشهد) - المأخوذ من الشهادة التي هي إخبار عن أمر مقطوع به - وأكدوا هذه الشهادة بإنّ واللام، للإيهام بأنّ شهادتهم صادقة، وأنهم لا يقصدون بها إلا وجه الحق، وأنّ ما على ألسنتهم يوافق ما في قلوبهم... (والله) - تعالى - (يشهد إنّ المنافقين لكاذبون) في قولهم: نشهد إنك لرسول الله، لأن قولهم هذا يبين ما أخفته قلوبهم المريضة من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق الذي جئت به (١٩٨٧م، ج ١٤، ص ٣٩٩ - ٤٠٠).

وقال الشيرازي في الأمثل في تفسير القرآن المنزل:

وبناء على هذا فإنّ شهادة المنافقين على رسالة الرسول ليست من قبيل الكذب الخبيري لأنها مطابقة للواقع، ولكنها من نوع الكذب المخبري إذ تخالف اعتقاد المنافقين. لذلك جاء التعبير القرآني: (والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون) بعبارة أخرى: إنّ المنافقين لم يريدوا الإخبار عن واقعية رسالة رسول الله وإنما أرادوا الإخبار عن اعتقادهم برسالته، وهذا من الكذب المحض. ومن الملاحظ أنّ المنافقين استخدموا كل الطرق لتأكيد شهادتهم، غير أنّ الله كذبهم بشدة وبنفس اللهجة التي

أكدوا فيها شهادتهم. وهذه إشارة إلى أن المناققين يجب أن يواجهوا بنفس الشدة التي يؤكدون فيها على صدقهم» (١٣٧٩ هـ. ش، ج ١٨، ص ٣٣٦ - ٣٣٧).

وجاء في التحرير والتنوير:

لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن المناققين قالوا: نشهد إنك لرسول الله. فيجوز أن يكون قولهم: «نشهد إنك لرسول الله» محكياً بالمعنى لأنهم يقولون عبارات كثيرة تفيد معنى أنهم يشهدون بأنه رسول الله مثل نطقهم بكلمة الشهادة. ويجوز أن يكونوا تواطؤوا على هذه الكلمة كلما أعلن أحدهم الإسلام. وهذا أليق بحكاية كلامهم بكلمة (قالوا) دون نحو: زعموا. و (إذا) ظرف للزمان الماضي بقريته جعل جملتها ماضيتين، والظرف متعلق بفعل (قالوا) وهو جواب (إذا). فالمعنى: إنك تعلم أنهم يقولون نشهد إنك لرسول الله. و(نشهد) خبر مؤكّد لأن الشهادة الإخبار عن أمر مقطوع به إذ هي مشتقة من المشاهدة أي المعاينة، والمعاينة أقوى طرق العلم، ولذلك كثر استعمال: أشهد ونحوه من أفعال اليقين في معنى القسم. وكثير أن يُجاب بمثل ما يجاب به القسم قاله ابن عطية. ومعنى ذلك: أن قوله: (نشهد) ليس إنشأ. وبعض المفسرين جعله صيغة يمين. وروي عن أبي حنيفة والمقصود من قوله: «والله يشهد إن المناققين لكاذبون» إعلام النبي صلى الله عليه وسلم وإعلام المسلمين بطائفة مبهمّة شأنهم النفاق... وجملة (إنك لرسول الله) بيان لجملة (نشهد). وجملة (والله يعلم إنك لرسوله) معترضة بين الجملتين المتعاطفتين وهذا الاعتراض لدفع إيهام من يسمع جملة (والله يشهد إن المناققين لكاذبون) أنه تكذيب لجملة (إنك لرسول الله) فإن المسلمين كانوا يومئذ محفوفين بفنم من المناققين مبثوثين بينهم هجّيراهم قننة المسلمين فكان المقام مقتضياً دفع الإيهام وهذا من الاحتراس. وعلّق فعل (يعلم) عن العمل لوجود (إنّ) في أول الجملة وقد عدوا (إنّ) التي في خبرها لأم ابتداء من المعلقات لأفعال القلب عن العمل بناء على أن لام الابتداء هي في الحقيقة لام جواب القسم وأن حقها أن تقع قبل (إنّ) ولكنها زُحلت في الكلام كراهية اجتماع مؤكّدين متصلين، وأخذ ذلك من كلام سيبويه. وجملة (والله يشهد إن المناققين لكاذبون) عطف على جملة (قالوا نشهد). وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوي الحكم. وحيء بفعل (يشهد) في الإخبار عن تكذيب الله تعالى إياهم للمشاكلة حتى يكون إبطال خبرهم مساوياً لإخبارهم... فمعنى كون المناققين كاذبون هنا أنهم كاذبون في إخبارهم عن أنفسهم بأنهم يشهدون بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله لأن خبرهم ذلك مخالف لما في أنفسهم فهم لا يشهدون به ولا يوافق قولهم ما في نفوسهم (بلا تا، ج ٢٨، ص ٢٣٥).

أقول: أين ذهب القسم إذن؟! أليس في هذا محاولة فرض قاعدة على اللغة رغم مخالفتها لظاهر اللغة؟ وقال الدعاس في إعراب

القرآن الكريم:

﴿إِذَا جَاءَكَ إِذَا ظَرْفِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ غَيْرُ جَازِمَةٍ وَمَاضٍ وَمَفْعُولٍ «الْمُنَاقِقُونَ» فَاعِلُهُ وَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ جَرِّ بِالْإِضَافَةِ «قَالُوا» مَاضٍ وَفَاعِلُهُ وَالْجُمْلَةُ حَالٌ «نَشْهَدُ» مُضَارِعٌ فَاعِلُهُ مُسْتَتِرٌ وَالْجُمْلَةُ مَقُولُ الْقَوْلِ «إِنَّكَ» إِنْ وَاسْمُهَا «لَرَسُولُ اللَّهِ» اللَّامُ الْمَرْحَلَةُ وَخَبَرُهَا الْمُضَافُ إِلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ جَوَابُ نَشْهَدَ لَا مَحَلَّ لَهَا لِأَنَّهُ جَرَى مَجْرَى الْقِسْمِ. «وَاللَّهُ» الْوَاوُ وَالِاعْتِرَاضُ وَلَفْظُ الْجَلَالَةِ مُبْتَدَأٌ «يَعْلَمُ» مُضَارِعٌ فَاعِلُهُ مُسْتَتِرٌ وَالْجُمْلَةُ الْفِعْلِيَّةُ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ مُعْتَرِضَةٌ لَا مَحَلَّ لَهَا. «إِنَّكَ لَرَسُولُهُ» إِنْ وَاسْمُهَا وَاللَّامُ الْمَرْحَلَةُ «رَسُولُهُ» خَبَرُهَا وَإِنْ وَاسْمُهَا وَخَبَرُهَا سَدَّتْ مَسَدَ مَفْعُولِي يَعْلمُ. «وَاللَّهُ» مُبْتَدَأٌ «يَشْهَدُ» مُضَارِعٌ فَاعِلُهُ مُسْتَتِرٌ وَالْجُمْلَةُ الْفِعْلِيَّةُ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ حَالٌ. «إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ لَكَاذِبُونَ» إِنْ وَاسْمُهَا وَاللَّامُ الْمَرْحَلَةُ «كَاذِبُونَ» خَبَرُهَا (٢٠٠٤م، ج ٣، ص ٣٤٤).

وهنا كذلك نرى أنه اعتبر "نَشْهَدُ" بمعنى القسم والجملة الاسمية جواب نشهد لا محل لها لأنها جرت مجرى القسم،

بينما سكت عن الفعل "يَشْهَدُ" المتعلق بشهادته تعالى! وقال الرازي:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَاقِقُونَ﴾ يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي وَأَصْحَابَهُ ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وَتَمَّ الْخَبْرُ عَنْهُمْ ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أَي أَنَّهُ أَرْسَلَكَ فَهُوَ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ أَنَّهُمْ أَضْمَرُوا غَيْرَ مَا أَظْهَرُوا، وَأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ بِالْقَلْبِ، وَحَقِيقَةُ كُلِّ كَلَامٍ كَذَلِكَ، فَإِنَّ مَنْ أَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ وَعَتَمَدَ بِخِلَافِهِ فَهُوَ كَاذِبٌ، ... وَجَوَابُ إِذَا ﴿قَالُوا نَشْهَدُ﴾ أَي أَنَّهُمْ إِذَا أَتَوْكَ شَهِدُوا لَكَ بِالرِّسَالَةِ، فَهُمْ كَاذِبُونَ فِي تِلْكَ الشَّهَادَةِ، لِمَا مَرَّ أَنَّ قَوْلَهُمْ يُخَالِفُ اعْتِقَادَهُمْ، وَفِي الْآيَةِ مَبَاحِثُ: الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ قَالُوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، فَلَوْ قَالُوا: نَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، أَفَادَ مِثْلَ مَا أَفَادَ هَذَا، أَمْ لَا؟ نَقُولُ: مَا أَفَادَ، لِأَنَّ قَوْلَهُمْ: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، صَرِيحٌ فِي الشَّهَادَةِ عَلَى إِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ، وَقَوْلُهُمْ: نَعْلَمُ لَيْسَ يَصْرِيحُ فِي إِثْبَاتِ الْعِلْمِ، لِمَا أَنَّ عِلْمَهُمْ فِي الْغَيْبِ عِنْدَ غَيْرِهِمْ (١٩٨١م، ج ٣٠، ص ١٢ - ١٣).

وجاء في تفسير الطبري:

بسم الله الرحمن الرحيم يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَاقِقُونَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿قَالُوا﴾ بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ قَالَ الْمُنَاقِقُونَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَقُولُوا ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ لَكَاذِبُونَ يَقُولُ: وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ لَكَاذِبُونَ فِي إِخْبَارِهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَذَلِكَ أَنَّهَا لَا تَعْتَقِدُ ذَلِكَ وَلَا تَتَوَكَّنُ بِهِ، فَهِيَ كَاذِبُونَ فِي خَبْرِهِمْ عَنْهَا بِذَلِكَ. وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ لَكَاذِبُونَ، إِنَّمَا كَذَبَ ضَمِيرُهُمْ لِأَنَّهُمْ أَضْمَرُوا النِّفَاقَ، فَكَمَا لَمْ يَقْبَلْ إِيْمَانَهُمْ، وَقَدْ أَظْهَرُوهُ، فَكَذَلِكَ جَعَلَهُمْ كَاذِبِينَ، لِأَنَّهُمْ أَضْمَرُوا غَيْرَ مَا أَظْهَرُوا (٢٠٠١م، ج ٢٢، ص ٦٥٠).

وجاء في تفسير في ظلال القرآن مثل ذلك: «فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان، لا يقصدون بها وجه الحق، إنما يقولونها للتقية، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين. فهم كاذبون في أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة، فقد جاءوا ليخدعوا المسلمين بها، ويداروا أنفسهم بقولها. ومن ثم يكذبهم الله في شهادتهم بعد التحفظ الذي يثبت حقيقة الرسالة: والله يعلم أنك لرسوله.. والله يشهد إن المناققين لكاذبون» (٢٠٠٣م، ص ٣٥٧٤).

وقال الشيخ عبد الغني الغرابي:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَاقِقُونَ﴾ أَي إِذَا أَتَاكَ يَا مُحَمَّدُ الْمُنَاقِقُونَ وَحَضَرُوا مَجْلِسَكَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُلُوكٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أَي قَالُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ نَفَاقًا وَرِيَاءً: نَشْهَدُ بِأَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَالَ أَبُو السَّعْدِ: أَكْدُوا كَلَامَهُمْ بِإِنَّ وَاللَّامِ (إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ) لِلإِيدَانِ بِأَنَّ شَهَادَتَهُمْ هَذِهِ صَادِرَةٌ عَنْ صَمِيمِ قُلُوبِهِمْ، وَخُلُوصِ اعْتِقَادِهِمْ، وَوَفُورِ رَغْبَتِهِمْ وَنَشَاطِهِمْ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أَي وَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - يَعْلَمُ أَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولُهُ حَقًّا، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَكَ، وَالْجَمَلَةُ اعْتِرَاضِيَّةٌ جِيءَ بِهَا لِدَفْعِ تَوَهُمِ تَكْذِيبِهِمْ فِي دَعْوَى رِسَالَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِثَلَا يَتَوَهُمُ السَّمَاعُ أَنَّ قَوْلَهُمْ ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ كَذِبٌ فِي حِدِّ ذَاتِهِ، ... ثُمَّ قَالَ - تَعَالَى - ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿أَي يَشْهَدُ بِكَذِبِ الْمُنَاقِقِينَ فِيمَا أَظْهَرُوهُ مِنْ شَهَادَتِهِمْ وَحَلْفِهِمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ، لِأَنَّ مَنْ قَالَ بِلِسَانِهِ شَيْئًا وَعَتَمَدَ خِلَافَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ، وَالإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ (إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ) لَزِمَهُمْ وَتَسْجِيلُ هَذِهِ الصِّفَةِ الْقَبِيحَةِ عَلَيْهِمْ، كَمَا جَاءَتْ الصِّيغَةُ مُؤَكَّدَةً بِإِنَّ وَاللَّامِ زِيَادَةً فِي التَّقْرِيرِ وَالْبَيَانِ (٢٠٠٧م).

وجاء في مجمع البيان أنَّ لفظ الشهادة أريد به المعنى اللغوي وهو الإخبار. قال في معنى الآية: «المعنى: خاطب الله سبحانه نبيه فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْمُنَاقِقُونَ﴾ ... ﴿قَالُوا نَشْهَدُ﴾ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، أَي أَخْبَرُوا بِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿فِي قَوْلِهِمْ إِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَكَانَ إِكْذَابُهُمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ ذَلِكَ بِقُلُوبِهِمْ، وَلَمْ يَكْذِبُوا فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى أَلْسِنَتِهِمْ، لِأَنَّهُمْ شَهِدُوا بِذَلِكَ، وَهُمْ صَادِقُونَ فِيهِ. وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ، إِنَّمَا

هو بالقلب، ومن قال شيئاً واعتقد خلافه، فهو كاذب» (١٩٨٨م، ج ٩، ص ٤٣٩). لاحظ معي كيف اعتبر تأكيدهم للشهادة بالخبر اليقين؟! وجاء في تفسير الميزان مثل ذلك:

فقوله: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله) حكاية لإظهارهم الإيمان بالشهادة على الرسالة فإن في الشهادة على الرسالة إيماناً بما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويتضمن الإيمان بوحدهيته تعالى وبالمعاد، وهو الإيمان الكامل. وقوله: (والله يعلم إنك لرسوله) تثبتت منه تعالى لرسالته صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما أوردته مع أن وحي القرآن ومخاطبته صلى الله عليه وآله وسلم كان كافياً في تثبت رسالته، ليكون قرينة مصرحة بأنهم كاذبون من حيث عدم اعتقادهم بما يقولون وإن كان قولهم في نفسه صادقا فهم كاذبون في قولهم كذبا مخبرياً لا خبرياً فقوله: (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) أريد به الكذب المخبري لا الخبري» (بلا تا، ج ١٩، ص ٢٧٨ - ٢٧٨٩).

فهل يبقى بعد ذلك شك لدى أحد بعدم صحة مقولة "عدم جواز تأويل «إن» المكسورة الهمزة إذا كانت في وسط الكلام"؟ هل لاحظت كيف أشارت أغلب النصوص المذكورة من التفاسير إلى إمكانية تأويلها لتوافق روح اللغة، خاصة ما ذكره الشيخ الغرابي، حين قال: «والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» أي يشهد بكذب المنافقين؟ (٢٠٠٧م).

الخاتمة

وخلاصة القول أن الفرضيتين اللتين فرضناهما في المقدمة صحيحتان؛ فالذين يقولون بكون «إن» و«أن» كلتيهما للتوكيد يجعلونهما سواء في ذلك ولا يفرقون بينهما، ويُعترض على ذلك بأمرين: الأول أن الكسر أقوى من الفتح، فلا بد أن يحدث فرقاً في المعنى، والثاني أنهم يقولون بمصدرية «أن». ولكنهم لا يثبتون لها التوكيد عند تأويلها؛ ففي تأويل جملة "أصحيح أنك مسافر؟" نقول: "أصحيح سفرك؟" وهي جملة تخلو من التوكيد، ولا نقول: "أصحيح سفرك المؤكّد؟" هذه مسألة، والمسألة الأخرى هي أننا نكسر همزة «أن» في وسط الكلام جوازاً ولا يحدث فرق في معنى الجملة، إذ لا فرق بين توكيدها بـ «أن» أو «إن»، وهو غير مقبول منطقياً ويُعتبر من العبث أو اللغو، وعليه لا يبقى لنا خيار سوى الإذعان بصحة الفرضية الأولى، وهي أن «أن» ليست للتوكيد، بل هي مصدرية فحسب دخلت على جملة اسمية لتحولها إلى مصدر مؤول، لأنه لا يوجد حرف مشبه بالفعل غيرها يؤدي ما تؤديه، وإن أريد التوكيد منها، إضافةً إلى مصدرية، كُسر همزتها. وبذلك يكون كسر همزة «إن» للتوكيد ومنع مصدريتها في وسط الكلام من المتاهات النحوية التي لا دليل عليها وواقع اللغة يشهد بخلافه، وهو ما ثبت من النماذج التي أوردناها للتفاسير المختلفة. وقولنا: "في وسط الكلام" يصدق على كافة موارد جواز فتح همزة «إن» وكسرها. وقد أشارت المقالة إلى مسألة مهمة في هذا الصدد، وهي أن مسألة إمكان التأويل وعدمه ليست مهمة، لأنها ليست واقعية، فالمهم هو موقع جملة «إن» والمعنى الذي يرسمه ذلك الموقع في الذهن؛ إذ نبرر، بعض الأحيان، عدم تمكّننا من التقدير أو التأويل بدلالة السياق أو تفسير المذكور أو ما شابه ذلك. إذن «إن» للتوكيد دائماً ومصدرية بعض الأحيان، إن أريد منها الأمران معاً، و«أن» مصدرية دائماً وليست للتوكيد، فهي حرف مصدرية رابط خاص بالجملة الاسمية فقط.



المصادر والمراجع

أ- العربية

﴿القرآن الكريم﴾

١. ابن جني، عثمان. (بلا تا). الخصاصص. (ط ٣). بيروت: دار الكتب العلمية.
٢. ابن عاشور، محمد الطاهر. (بلا تا). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.
٣. ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله. (١٣٨٤ هـ. ش). شرح ابن عقيل. (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد). (ط ٩)، قم: ناصر خسرو.
٤. الأنصاري، جمال الدين ابن هشام. (١٩٩٤ م). شرح قطر الندى وبل الصدى. (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد). بيروت: المكتبة العصرية.
٥. _____ . (بلا تا). مغني اللبيب عن كتب الأعراب. (ط ٤). قم: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.
٦. بشر، كمال. (٢٠٠٠ م). علم الأصوات. القاهرة: دار غريب.
٧. حسن، عباس. النحو الوافي. دون معلومات.
٨. الخطيب، طاهر يوسف. (٢٠٠٧ م). المعجم المفصل في الأعراب. (مراجعة اميل يعقوب). (ط ٤). بيروت: دار الكتب العلمية.
٩. الخولي، محمد علي. (١٩٨٢ م). معجم علم الأصوات. الرياض: جامعة الرياض (مطابع الفرزدق).
١٠. الدعاس، أحمد عبيد؛ وأحمد محمد حميدان؛ وإسماعيل محمود القاسم. (٢٠٠٤ م)، إعراب القرآن الكريم. دمشق: دار النمير ودار الفارابي.
١١. الرازي، فخر الدين. (١٩٨١ م). التفسير الكبير. دمشق: دار الفكر.
١٢. السامرائي، فاضل صالح. (١٤٣٤ هـ. ق). معاني النحو. بيروت: مؤسسة التاريخ العربي.
١٣. سيوييه، عمرو بن عثمان. (١٩٨٨ م)، الكتاب. (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون). (ط ٣). القاهرة: مكتبة الخانجي.
١٤. سيد قطب. (٢٠٠٣ م)، تفسير في ظلال القرآن. (ط ٣٣). القاهرة: دار الشروق.
١٥. الشرتوني، رشيد. (١٣٨٣ هـ. ش). مبادئ العربية. (ط ١٠). طهران: أساطير.
١٦. الشمسان، إبراهيم. (١٤٢٠ هـ. ق). «الإدغام: مفهومه وأنواعه وأحكامه». مجلة جامعة الإمام. ع ٢٥. صص ١ - ٤٨.
١٧. الشيرازي، ناصر مكارم. (١٣٧٩ هـ. ش). الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. قم: مطبعة أمير المؤمنين.
١٨. ضيف، شوقي. (بلا تا). تجديد النحو. قم: نشر أدب الحوزة.
١٩. الطباطبائي، محمد حسين. (بلا تا). الميزان في تفسير القرآن. قم: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية.
٢٠. الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن. (١٩٨٨ م). مجمع البيان. (تصحيح وتحقيق وتعليق هاشم الرسولي المحلاتي وفضل الله اليزدي الطباطبائي). (ط ٢). بيروت: دار المعرفة.
٢١. الطبري، محمد بن جرير. (٢٠٠١ م). تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن). (تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي). القاهرة: هجر للطباعة والنشر.
٢٢. طنطاوي، محمد سيد. (١٩٨٧ م). التفسير الوسيط للقرآن الكريم. (ط ٢). القاهرة: السعادة.

٢٣. الفارسي، أبو علي. (١٤١٩هـ. ق - ١٩٩٩م). *التكملة*. (تحقيق ودراسة كاظم المرجان). (ط ٢). بيروت: عالم الكتب.
٢٤. القرطبي، محمد بن أحمد. (٢٠٠٦م). *الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي*. (تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي وأخران). بيروت: مؤسسة الرسالة.
٢٥. كمال الدين، حازم علي. (١٩٩٩م). *دراسة في علم الأصوات*. القاهرة: مكتبة الآداب.
٢٦. المبرد، أبو العباس. (١٩٩٤م). *المقتضب*. (تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة). القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي.
٢٧. جماعة من المؤلفين. (٢٠٠٤م). *المعجم الوسيط*. (ط ٤). القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
٢٨. المخزومي، مهدي. (١٩٨٦م). *في النحو العربي: نقد وتوجيه*. (ط ٢). بيروت: دار الرائد العربي.
٢٩. يعقوب، إميل بديع وآخرون. (١٩٨٨م). *موسوعة النحو والصرف والإعراب*. بيروت: دار العلم للملايين.

ب. المواقع الإلكترونية

٣٠. الغرابي، عبد الغني. (٢٠٠٧/١١/٨م). *سورة المناقون*.

<http://www.midad.com/article>

ج. الأقراص المدمجة:

٣١. قرص مدمج تحت عنوان (سليم) من إنتاج مؤسسة العلوم والمعارف الإسلامية (بنياد علوم ومعارف اسلامي)

